التوظيف السردى وثنائيات الثقافة بين الذات والآخر

((التمرد والاستكانة))

The employment of narrative and the culture's duplicity
between the self and the other ((Insurgency and discipline))

هيلين عبد الجبار غيدان العزاوي

Helen Abdel-jabar Gedan

أ.م.د. علي عبد الرحيم كريم

Asst.Prof. ali Abdel-Raheem Kareem

مستخلص البحث باللغة العربية:

تتناول هذه الدراسة تسليط الضوء على ثنائية جدلية في الأدب العربي والعالمى "الذات والآخر" وتجلياتها في الثنائية الثقافية، ولا يخفى علينا أن هذه الثنائية كانت مثار اهتمام العديد من الدراسات الأدبية والنقدية؛ والسبب يعود إلى ارتباطها بالذات المبدعة للكاتب أو المؤلف من جهة، ومن جهة أخرى تسلط الضوء على الآخر الذي يعد مبهم أو غامض في اغلب الاحيان.

إذ لا يمكن أن ندرس الذات بمعزل عن الآخر والعكس صحيح؛ لأن الآخر يؤدي دوراً حاسماً ومؤثراً في معرفة هوية الذات كذلك هو دور الذات في معرفة هوية الآخر، فوجود أحدهما دون الآخر لا يمكن أن نلاحظه داخل النص الأدبي، فهما مكملان لبعضهما، لذلك جاءت دراستنا كمحاولة للكشف عن تجليات الذات والآخر في المجموعة القصصية (الشمس التي وراء القمة) للرائدة نازك الملائكة.

Abstract

This study highlights dialectical duality in Arab and international literature, "the ego and the other" and its manifestations in cultural dualism. It is no secret from us that this duality was of interest to many literary and critical studies, and the reason is due to its association with the creative self of the writer or author on the one hand, and on the other highlights the other, which is often considered ambiguous or vague.

It can't to study the ego apart from the other, and vice versa; because the other play decisive role in the know of self-identity as it is ego's role, we can't note one of them without the other inside the literary text, because they integrate each other; therefore, our study tries to clarify the manifestations of the self and the other in the collection of stories (The sun behind the summit).

مقدمة:

منذ بدء الخليقة ونشوء الأمم المختلفة، وتطور سلوك الإنسان، تحكمت به مجموعة من مفاهيم الثنائيات، فحاله غالباً ما يكون بين أمرين أثنين: (الذات والآخر)، (الحياة والموت)، (الليل والنهار)، (الفرح والحزن)،... الخ. وهكذا هي حال الإنسانية تركز في ديمومتها على مبدأ الثنائية، فنفس الانسان تطبعت عليها، الأمر الذي جعله ملتزماً بها وغير قادر على الانفلات من سطوتها.

التمهيد:

إن الحديث عن الآخر يعني إكتشاف الذات، وعلاقة الذات مع الآخر على الأصعدة ثقافياً وإجتماعياً وحضارياً وأيدولوجياً سياسياً واجتماعياً وحضارياً وثقافياً، وهذه العلاقة قائمة على أساس أن الذات هي المكون

الأساسي في حركة الفكر والثقافة بشكل عام، وهي الأصل، والصواب، والآخِر هو مجرد ظلٍ لهذه الذات، وهو فرع عنها، وهو الخطأ لكل تصوراتها، وتظلُّ العلاقة بين الذات والآخِر علاقةً جدليةً إفتراضية، فقد تكون الذات على حساب الآخِر، أو إلغاء الآخِر لصالح الذات، وهذه العلاقة قائمة على ثنائية الأشياء، وعلاقة التضاد القائمة بينهما، وأستحالة الدمج بين هذه الثنائيات.

ويُعتبر الآخِر بكل ألوانه وأطيافه ذو خصوصياتٍ وسماتٍ تُبرز ماهيته ومعدنه، ولا يمكن إدراك هذا الآخِر إلا بإدراك الذات التي تساهم بشكلٍ أو بآخر في التعرف على ذاتها إنطلاقاً من هذا الآخِر، واعتماداً على الفروقات والإختلافات والتناقضات التي توصلُ وتحكمُ العلاقات المتباينة والصراعات الظاهرة والباطنة، المكشوفة والمخفية بين الذات والآخِر؛ مما أضفى على الآخِر صبغة التفرد والإختلاف منذ الأزل إلى عصرنا المعاصر، ويبقى الآخِر حاملاً لمعاني الفوقية والتقدم والتطور في إنتظار لحاق الذات التي لا تزال رابضة في مكانها تنتظر وتندد وتتمنى رفع رأسها الذي أتعبتهُ الطأطأة.

مفهوم التمرد والاستكانة:

التمردُ اصطلاحاً: ((الغربة عن الطبيعة والمجتمع ورفاق المرء وذاته، هي جزء من تصاعده في معراج النمو، ذلك أن على المرء أن ينزع ذاته من رحم البيئة لكي يصبح شخصاً فرداً وكياناً مستقلاً والوعي بالذات يتضمن مثل هذا الانتزاع ويتعين على المرء أن ينظر إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى العالم ككيانات غريبة ومحيرة))^(١).

وقد أشار مصطلح التمرد أول مرة إلى ((المنشقين عن الكنيسة البريطانية dissenters))^(٢)، كما ورد هذا المصطلح في معجم مصطلحات الأدب بمعناه الفكري والاجتماعي والديني:

١- المُخالفة: الخروج على رأي سائد أو رأي تفرضه سلطة قوية للدولة. وأصبح التعبير عن هذه المخالفة من سمات المثقفين في مجتمع يَرزح تحت ضغوط شديدة الطغيان.

٢- التمرُّد: الخروج على نوااميس المجتمع وقوانين النظام العام، وعدم الاعتراف بسُلطان أيِّ سلطة.

١- الاغتراب في شعر نازك الملائكة، ساجدة التميمي، أطروحة دكتوراه، بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٦: ٤١-٤٢.

٢- مصطلحات مختارة في الأدب واللغة والدراما، قحطان فؤاد الخطيب، طبع بمطبعة الجمهورية، الموصل، ط١، ١٩٦٧: ٢٠.

٣- أهلُ الانشقاق، المنشقون: ((طائفة من الإنجليز البروتستانت خرجت على الكنيسة الأنجليكانية لاعتقادها أنها ابتعدت مع الزمن عن الرسالة المسيحية الحقّة))^(٣).

أما المستكين فهو الذي يقوم بالتوسط بين الدولة والمجتمع عندما يسوغ لها سياستها وممارساتها^(٤). فالمستكين هو الذي يربط مصالحه بمصالح الجهاز السياسي القائم وهو عكس المتمرد على السلطة^(٥).

ولكي نفهم علاقة الأدب بصورة عامة بالأيديولوجيا في إطارها السياسي والاجتماعي، فلا بد من القول أن ((الأدب ليس مضموناً أيديولوجياً له شكل أدبي جمالي أو بناء معين للأيديولوجيا ذلك أن علاقة الأدب الموضوعية بالأيديولوجيا تظهر في كونه أنتج تحت تأثيرها، وفي كونه هو الآخر ينتج آثاراً أيديولوجية، لذا فالأيديولوجيا العامة تبدو مضمرة ومخفية في النص الذي تكشف عنه القراءة وتكشف بالتالي أيديولوجية لتصبح صريحة))^(٦)، ولعل ذلك ما كان يقصده رولان بارت بقوله: ((إن أعظم الكبائر النقدية ليست الأيديولوجيا بل السكوت الذي يتستر عليها))^(٧). فالأديب لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن حركة التاريخ فما يحدث في عصره من تحولات وصراعات في حراك الواقع الاجتماعي والسياسي، تسهم في صياغة رؤيته للواقع؛ ولذلك فإن ((الشعر كائن سياسي لا يدافع عن هذا الحزب أو ذاك بل يعمل في العمق من أجل سلطة الإنسان، سلطة جديدة للإنسان))^(٨). فالأدب ((مرتبط عضوياً بالحياة العامة وهو جوهرياً سياسي))^(٩).

إن التزام الفنان بقضايا عصره هو ما يدفعه إلى التمرد على كل ما من شأنه أن يحول من دون حل هذه القضايا ((فهو يرفض الواقع أيضا ولكن من أجل أن يفضي به إلى وحدة عليا انه يرفضه ويأخذه على عاتقه))^(١٠).

٣- معجم مصطلحات الأدب - إنكليزي - فرنسي - عربي، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤: ١١٥.

٤ - ينظر: اوهام النخبة، أو نقد المثقف، علي حرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٦: ١٣١

٥ - ينظر: شخصية المثقف في الرواية العربية المعاصرة، محمد رجب الباردي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩٣: ١١٨

٦ - الأدب و الأيديولوجيا، د.عمار بلحسن، مجلة المنار، باريس، ع ٥٨، س٥، أكتوبر، ١٩٨٩: ٢٧.

٧ - ما النقد، رولان بارت، ترجمة د. محمد نديم خشفة، مجلة آفاق عربية، ع ١٢، س١٥، كانون الأول ١٩٩٠م: ١٢٥.

٨ - أسئلة الشعر في زمن اللاشعر، رشيد بنحدو، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج ١٩، ع (٤)، ١٩٨٩: ٢١٢.

٩ - التحديات التي تواجه القصيدة العربية الحديثة، د. عبد الستار جواد، مجلة الآداب اللبنانية، ع (١١، ١٢)، ١٩٨٨: ١٧.

١٠- كامو والتمرد، المصدر السابق: ٦٣.

فالمبدعون عامة يتميزون بالجرأة الاجتماعية والتوتر الإنفعالي، فهم يمتلكون حساسية عالية تجاه الواقع الأزوم وميلاً بوهيمياً خيالياً تجريبي للعالم، فيه نوع من التألم والإحتجاج الدائم على الواقع. فالذات تثور على الواقع الإجماعي الذي يفرض عليها، فهي تعبر عن وعي الأنا والأنت (الذات والآخر). □ □^{١١}

ويرى أحمد قبش أن الأصل في الأدب والفن أنهما ولدا مقيدين وأنهما لم يعرفا الحرية إلا فيما بعد، فالشاعر في المجتمع البدائي ولد ملتزماً بالدفاع عن القبيلة مشيداً بفضائلها مزيماً بخصومها ولم يأخذ الشاعر البدائي في التعبير عن أفكاره الفردية ومشاعره الخاصة إلا عندما بدأ المجتمع يتطور نحو التعقيد، وأن على الأديب أن يكون حراً لانه إذا باع رأيه أو قيد وجدانه ذهبت عنه صفة الأديب، إلا إذا كان الالتزام عنده ينبع من قلبه وروحه^(١٢).

أما إيليا الحاوي فيرى أنه مادام الأمر أمر التزام وفقاً للتعبير المعاصر - أي التزام قضية- فإن العبارة تبدو فاقدة المضمون، ففي لفظة الالتزام دلالة على التعمد فكأن الشاعر يُخضع نفسه لموقفٍ ويقسرها عليه بوعيه وتقرير إرادته، وليست الحال كذلك في الفن إذ لا إكراه فيه ولا خضوع أو إخضاع ولا سلطة للعقل على مادة الشعر واستدرارها وإفاضتها^(١٣).

((بعد أن أستقر المفهوم القومي بشكل واضح ومتميز وأصبح نقياً من كل ما خالطه من مفهومات أخرى اختلطت به لأسباب تاريخية بعد أن أستقر هذا المفهوم وأصبح واضحاً ومستمراً أتجه الأديباء في عصر النهضة إلى التعبير عن هذا المفهوم، ولكنهم صبّوا مشاعرهم القومية في قوالب شتى وفي صور متعددة، بعض هؤلاء من صبّ مشاعره القومية في صورة الواقع المؤلم الذي تعيشه الأمة العربية، فذكر ما تعانيه أمتة من ظلم واستكانة وخنوع وسكوت عن الحق وإتباع لطريق الردى)) □ □^{١٤}.

١١ - ثنائية الذات والآخر في شعر السياب، علي عبد الرحيم كريم، كلية التربية، جامعة بابل، رسالة ماجستير، ٢٠٠٧: ١١١.

١٢ - ينظر: تاريخ الشعر العربي الحديث، احمد قبش، مطبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٧١: ٦٠٢.

١٣ - ينظر: نزار قباني شاعر قضية والتزام، ايليا الحاوي ، مط دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج ٢، د ت: ٢٥. وينظر:

اتجاهات الشعر العربي المعاصر، د. إحسان عباس، منشورات المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ١٩٧٨: ٢٠٤.

١٤ - موسوعة النابلسي، استرجع بتاريخ ٢٠٢١-٢-٥، (https://2u.pw/8IAVd)

من ذلك يتبين أن الأدب المتمرد يحدو بصاحبه إلى رفض كل ما يؤدي إلى قتل الأمل في روح الإنسان، ذلك الأدب الذي يعي وظيفته الثورية بوصفه "جزءاً من الفعل الثوري لا ينفصل عن حركة الجماهير"^(١٥).

يحاول علماء النفس أن يحلوا الكوامن الحقيقية خلف التمرد التي تثيره وتبعث عليه؛ إذ عرّف عالم النفس جاك بريم مفهوم التمرد النفسي بأنه ((حالة دافعية تتولد نتيجة لتقييد حرية الفرد أو تهديده بالتقييد لها أثناء القيام بسلوك ما، بحيث تتجه هذه الدافعية نحو استعادة حرية الفرد في القيام بهذا السلوك الذي تم تقييده أو هدد بذلك التقييد إما بصورة مباشرة (القيام بالسلوك المحظور) أو بصورة غير مباشرة (تشجيع الآخرين للقيام بالسلوك المحظور أو القيام بسلوك مشابه له أو رؤية الآخرين يقومون به، أو تحريضهم على القيام به))^{١٦}. وإن فكرة التمرد كما يرى (كروكشانك) هي التي تساعد في تخطي نطاق التهديد وليس فكرة التسليم بالواقع وهذا ما يعطي التمرد القابلية على الخلق والتغيير كونه لا يرضخ لتقييد الحرية.^{١٧} وعن سايكولوجية الانسان المتمرد يرى مصطفى حجازي أنه يحدث للمتمرد في أغلب الأحوال ((نوع من التركيز حول الذات، فكأن العالم كله يجب أن ينتظم انطلاقاً منه هو و تبعاً لوضعه. هناك تضخم ذاتي يقابله انحسار في قيمة وأهمية المحيط على العكس تماماً من مرحلة الرضوخ))^{١٨} نستنتج من ذلك أن التمرد النفسي يكون حالة ايجابية إن كان همّ المتمرد بالدرجة الاولى السعي لتحقيق غايات انسانية - عامة أو خاصة- ربما يعجز الآخرون من الذين لا يمتلكون الجرأة للخوض في غمارها، أما إذا كان المتمرد على خلاف ذلك فإن تمرده حينئذ يكون تمرداً سلبياً أو فوضوياً. ويقول الدكتور أحمد عزت راجح في كتاب أصول علم النفس ((أسباب التمرد النفسية لدى الإنسان حاجتان نفسيتان مكتسبتان ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بدافع الأمن هما: (١) الحاجة إلى التقدير الاجتماعي، (٢) الحاجة إلى الانتماء فأما الحاجة إلى التقدير الاجتماعي فتدفع الفرد إلى أن يكون موضع قبول وتقدير واعتبار واحترام من الآخرين وإلى أن يكون له مكانة اجتماعية وأن

١٥ - الشعر في إطار العصر الثوري، د. عز الدين اسماعيل، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦: ٧٩.

وينظر: قضايا وأدباء، إعداد راضي مهدي السعيد، مجلة الأقلام، العدد٤، السنة ٨، مطبعة دار الحرية ، بغداد، ١٩٧٢.

١٦ - ورد نص هذا التعريف (لجاك بريم) ضمن رسالة الماجستير الموسومة (أثر بعض المتغيرات في التمرد النفسي) ميسون عبد خليفة سلمان، بغداد، ١٩٩٨: ١٠.

١٧ - ينظر: البير كامو وادب التمرد، جون كروكشانك، ترجمة وتصدير د. جلال العشري، ١٩٦٠: ١٢.

١٨ - التخلف الاجتماعي مدخل الى سايكولوجية الانسان المقهور، مصطفى حجازي، معهد الانماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٦: ٧٩.

يكون بمنأى من استهجان المجتمع أو نبذه ومما يعزز الشعور بالأمن أيضاً انتماء الفرد إلى جماعة قوية يتقمص شخصيتها ويوحد نفسه بها..))^(١٩)، ويرى بعض الباحثين في علم النفس أنّ الرفض هو نوع من أنواع التمرد ((إنّ (الرفض) يمكن أن يحول دون إنجاز الأعمال الضرورية.... وخالصة القول في هذا الشأن، أنّ عملية الرفض لها إيجابياتها وكذلك لها سلبياتها وأنّها قد تقيد في حالات وتكون ضارة في حالات أخرى))^(٢٠). تتحدث نازك عن نفسها و تتمرد على الماضي وعادة تتكلم بالصيغ المفردة وقد جاء التمرد النفسي ترجمة لنفسيتها وما يرقد في أعماقها من نكبات وصراع وتحسر من الدهر والمجتمع.

أما من وجهة نظر علماء الاجتماع فالتمرد هو ((من المشكلات التي تواجه البشرية وهو شعور الأفراد في المجتمعات المختلفة بالعجز عن تحقيق بعض أهدافهم الجوهرية في الحياة والأسباب التي تسبب هذا العجز وإن اختلفت أشكالها فإنّها تولّد حالة من الإحباط قد يصل إلى مستوى القنوط واليأس))^(٢١).

ويلاحظ هيجل بأنّ ((علاقة الفرد بالبنية الاجتماعية تغدو علاقة تنافر ويصل الفرد الغارق في تميزه الذي اكتشفه أخيراً إلى اعتبار البنية الاجتماعية التي كان متحداً بها من قبل شيئاً آخر بصورة كاملة وينشأ عدم تطابق في الوعي بين الذات والبنية، وينظر الفرد الآن إلى البنية باعتبارها شيئاً خارجاً عنه ومعارضاً له، لقد أصبحت شيئاً غريباً في نظريه))^(٢٢). تميزت نازك الملائكة بتمردتها الاجتماعي، يظهر ذلك في تبني أدبها الأعراف والمفاهيم التي ظهرت في العصر الحديث حيث تواجه منذ البداية، البنية الاجتماعية المرتكزة على العرف والتقاليد وهي تبتعد عن الجوانب السلبية وتطوي همها على الجوانب الإيجابية.

دفعت بواعث عدّة جيل الخمسينيات من القرن الماضي إلى التمرد على الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي؛ إذ حدد بموجبه رؤيته الفكرية والفنية، وكان التوتر في الوضع السياسي الباعث الأول للتمرد فقد شهدت الأمة العربية تحولاً ملحوظاً بعد الحرب العالمية الثانية، حيث حفزت تلك الحرب الوعي السياسي لدى مختلف شرائح المجتمع ودفعته إلى المواجهة المباشرة بوصفها المخلص الوحيد من سيطرة المحتل. وهكذا صارت السياسة جزءاً من هموم الأديب واحتوت خيرة الوجوه الأدبية أمثال السياب، والبياتي، وسعدي

١٩- أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط٧، ١٩٦٧: ٨١.

٢٠- المدخل إلى علم النفس، أ. د. عبد الرحمن عدس، أ. د. محي الدين توفيق، دار الفكر للطباعة، الأردن، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧: ٤٧٤.

٢١- الأنثروبولوجيا النفسية، د. قيس النوري، بغداد، جامعة بغداد، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٩٠: ٤٣٨.

٢٢- الأنثروبولوجيا النفسية، المصدر نفسه: ٩٨.

يوسف، وشاذل طاقه، وعلي الحلي، وهلال ناجي، وشفيق الكمالي، وعبد الرزاق عبد الواحد، وكاظم جواد^{٢٣} □ وهكذا كان للإرهاصات التي سبقت الثورات العربية في القرن الماضي أثرٌ في استعادة الوعي بالذات؛ إذ نمت في ذلك الوقت حركة تمرد، شهدها التاريخ العربي وعبرت عنها الأقاليم اجتماعياً وسياسياً وسجلت أدبيات وعائها الأدب الاجتماعي والسياسي الوطني في آنٍ واحد. وجاءت انطلاقة الشعر الحر بعد ذاتها لتمثل تمرداً واضحاً على سوء الأوضاع العامة بعد أن تولدت ((الحركات والتيارات العربية الثورية وتهيأت عوامل الانطلاق في ميادين الفكر والأدب مثلما تهيأت في ميدان السياسة والحرب)) □^{٢٤} □ وأصبح الشعر الحر ظاهرة أدبية عامة تتلاءم مع تعاضد الشعور بضرورة الحرية السياسية والفكرية. فضلاً عن أن الحاجة في العصر الحديث تطلبت أن يثور الشعر ثورة بلا حدود، ويرى غالي شكري أن تلك الثورة لم تكن ((تمرداً على اغراض الشعر القديم من هجاء او مدح او رثاء وفخر، او تجاوزاً لمرحلة البيت الواحد المكتفي بذاته مرحلة الحكمة الذهبية)) □^{٢٥} □. أمّا نازك الملائكة، فعلى الرغم من أنها من رواد حركة الشعر الحر وأنها اتخذت موقفاً لا يختلف عن غيرها من الشعراء إزاء الواقع إلا أنها كانت ((رومانسية تشكلاً ذاتياً وبناءً فنياً، محافظة في ما انطلقت منه وأسست عليه من بناءات فنية)) □^{٢٦} □ ولم تسمح لها نزعتها المحافظة سياسياً بالانخراط في الحركة الثورية □^{٢٧} □. وقد وُصفت من قبل عدد من النقاد بأنها عادت الى ما يمكن أن ندعوه بالتقاليد المدرسية □^{٢٨} □، وأنها لم تتمكن من أن تتجاوز نفسها و اتجهت بخطى واسعة نحو نهاية الشوط وهي التحجر والجمود □^{٢٩} □ وتوقفت عن قول الشعر على الرغم من محاولاتها في انقاذ قصيدتها من الركون إلى قصيدة الحلم بالشكل الذي يلغي التجربة وطموحها إلى تعميق مستوى قصيدتها فكان تمرداً واضحاً في إطار خروجها على الشكل الفني القديم، مالت نازك الملائكة إلى التمرد بحكم ما أجمع لها من العوامل، منها:

٢٣ - ينظر: دبير الملاك، د. محسن اطيماش، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٨٢: ١٦.

٢٤ - الالتزام والتصوف في شعر عبد الوهاب البياتي، عزيز السيد جاسم دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٩٠: ١٠.

٢٥ - شعرنا الحديث الى ابن، غالي شكري، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٩٨: ٨٥.

٢٦ - خمسون عاماً من التجديد، ماجد صالح السامرائي، مجلة الأقاليم، العدد ٥، تشرين الثاني ١٩٩٨: ٦.

٢٧ - ينظر: الالتزام والتصوف في شعر عبد الوهاب البياتي، المصدر السابق: ٧.

٢٨ - خمسون عاماً من التجديد، المصدر نفسه: ٦.

٢٩ - شعرنا الحديث الى ابن، المصدر نفسه: ٢٥.

أولاً: المقارنة بين الواقع الغربي و الواقع الشرقي من حيث بنية المجتمع وتمتع الفرد بالحقوق والحرية التي تكفلها المجتمعات الغربية.

ثانياً: غريزة المحاكاة في المجتمعات، فقد كان التمرد طبيعة نازك منذ نشأتها؛ إذ تتصف بأنها منزوية وعنيدة متمسكة بأرائها. لكن هذه السمات التي ارتسمت على كيانها النفسي لم تسلمها إلى القنوط، بل فجّرت فيها الثورة على الواقع شاعت لها أن تحررها من القيود وتعبّر عن أعماقها بلا عوائق. وقد استطاعت أن تعزز آراءها النقدية التي انتهت إلى التمرد عند الشاعرة. تميزت نازك الملائكة عن أقرانها من الأدباء بأنها تمرت فنياً على عدة مراحل، كل مرحلة لها طبيعتها الخاصة وصفاتها المميزة، ويبرز هذا النوع من التمرد في تحطيم عمود الشعر العربي القديم ونظمها الشعر الحر الحديث ثم تمردها على مجمل الشعر من خلال كتابة القصص.

كانت نازك الملائكة شاعرة وناقدة وناثرة إبداعية، لكن الدارسين اهتموا بشعرها ونقدها ولم يتطرقوا الى الجانب القصصي في ادبها، الذي يقدم صوراً حقيقية عن الذات والواقع لا تقل ابداعاً عن شعرها ونقدها، ويترجم ما يعتل في داخلها وأعماقها من ذاتٍ منطويةٍ مختزنة من طفولتها المبكرة، حيث الوحشة والاعتراب اللذان تحس بهما الذات العراقية.

التمرد والاستكانة في الشمس التي وراء القمة

ثلث الحرب العالمية الثانية مرحلة أدبية برز فيها الصراع بين الفكر الثوري المتمرد ونقيضه الفكر الخاضع المستكين، شكّل فيها رؤية جديدة هي رسالة أدبية بلاغية تعبّر عن حالة ناشئة بالغة الصعوبة، يستلزم من الأديب خلالها رؤية متفردة تتجاوز فكرة التأمل التقليدية السائدة قبل تلك المرحلة، ليدرك فعل التمرد والاستكانة في البيئة السياسية والاجتماعية العراقية والعربية. وظفّت القاصة في مجموعتها القصصية "الشمس التي وراء القمة" المتمرد إجتماعياً على الآخر، فالذات تستمد قيمها وأحاسيسها بإنسانيتها من خلال علاقتها (بالآخر/النحن) ذلك الآخر الذي يمثل (محيط الوعي بالنسبة لهذا الانسان) □□^{٣٠}. فليس المقصود بآخر النحن هو المختلف عرقياً أو حضارياً، وإنما نقصد به المختلف فكراً وعقائدياً داخل المجتمع نفسه، فعملية التواصل الاجتماعي بين الأفراد عملية معقدة بفضل هذا التباين في الرؤى والافكار التي توجه السلوك، فالآخر ليس شيئاً عارضاً أو ثابتاً باستمرار ((بل تتغير خصائصه بتغير الظروف والمواقع. فكما يكون الآخر فرداً، يكون

٣٠ - ينظر: الآخر بما هو اختراع تاريخي، جان فارو ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا اليه، تحرير: الطاهر لبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط ٢، ٢٠٠٨م: ٥١.

في أحيان أخرى جماعة، وكما يكون الآخر معروفاً للذات، وقريباً منها، فإنه يكون في أحيان أخرى في أماكن بعيدة، وحتى في أزمنة مختلفة)) □ □^{٣١}.

((ألا ترين إنها لا تطلب منا شيئاً ابداً؟ إن أخوتها جميعاً يلحون علينا بطلباتهم، إلا هي، فهي قانعة بلا شيء، وهي اليوم تلح على أن أمنع قطع النخلتين، ويحزنني أن أرد طلبها، والمشكلة أنهم يريدون بناء بيت يشمل مكانهما فماذا نفعل؟)) □ □^{٣٢}

قدم السارد وصفاً للموقف الذي يتعلق به برؤية الراوي كلي العلم، وقد أتاح له ضمير (الأنا) حرية التعبير عن ذاته بصورة أفضل، إلا أنه - أي السارد - سمح لشخصية (الأب) أن تعبر عن الموقف بحسب وجهة نظره هو إذ أعطى له زمام السرد ليتولى ذلك عبر التأثير الداخلي المتغير، نجد هنا أن الذات مستسلمة خاضعة لا تعبر عن تمرد لها للآخر، أي أن الذات مقتنعة متفوقة في داخلها، إلا إن الآخر للشخصية كسر ركونها إلى الاستكانة من خلال تمرد البنات المستكينات على قرار أهل بقطع النخلة، وهذا يدل على انفصال الإنسان عن ذاته، لأنه أصبح غير قادر على التوافق والتلائم مع محيطه.

((خلال اليومين التاليين استسلمت نهى إلى شحوب الكآبة، فقد سمعت والدها يقول لأمها همساً إن مالك الأرض مصرّ على قطع النخلتين لأنهما - في الخريطة المعدة للبناء - تقومان في موضع المطبخ، ولكنه نزولاً على إلحاح أبي مازن عدل الخريطة جهد المستطاع ووسع المطبخ إلى إحدى الجهتين وبذلك سيكون من الممكن إنقاذ نخلة واحدة، أما الثانية فلا مفر من قطعها، لا مفر من ذلك)) □ □^{٣٣}.

الذات الراوي، عبرت من خلال الفعل ذي الوظيفة السردية "استسلمت" عن الصراع الداخلي بين التوهم (بقاء النخلتين) وبين الحقيقة "قطع إحدى النخلتين"، فهو صراع داخلي، إلا أنها اشركت الآخر/الأهل لتأكيد الذات على استكانتها للآخر/الأهل

((- أيها العزيز، دعني أشرح لك الموضوع، كنت أيام صباي أحتقر العلاقة الجنسية وأنفر من الزواج كله، وارتبط بذلك ازدرائي للمرأة الحامل، فقد كانت تبدو لي مغرقة في الحسية وضعيفة في وقت واحد، وكنت أنا أعد نفسي لأن أكون أديبة، واليوم أراني كنت أنانية أرفض أن أعطي من نفسي للوجود، كنت أحب الحياة وأتعالى على أن أمنح العالم مخلوقات حية يستمر بها الكيان البشري، وكل هذا قد هذّبتة في السنوات

٣١ - البعد الجغرافي وصورة الآخر، مصطفى عمر التير، ضمن كتاب صورة الآخر العربي، المصدر نفسه: ٤١٩.

٣٢ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٦٩٠.

٣٣ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٦٩٣.

تدرجياً، لقد كبرت وجربت و نضجت، تعلمت أن أنقاد لعواطفى الطبيعية، وقد لاحظت أنني أحب الأطفال فبأي منطق أتعالى عن الحمل إذن؟ وبأي شرع احتقر المرأة الحامل؟)) □ □ ٣٤ .

الذات تشير إلى الواقع المأزوم الذي تعيشه الشخصية، من خلال إظهار لوحة حوارية عن طريق التراكم السردى، إذ تحاول الذات الأنانية أن تظهر دنوية حمل المرأة، وترفض أن تعطي من نفسها للوجود، وفي هذا تمرد على كينونة المرأة، هذا التمرد أنقلب إلى استكانة واضحة، إذ تحول منطقتها إلى قبول وتقبل للانقياد للعواطف الطبيعية والحمل/الآخر.

((أما قبلته التي طبعها على ظهر كفها فإن هدى رأته فيها دون أن يقصد هو واعياً، احتراماً جديداً للأمومة، أنه الآن لا يقبلها لأنها زوجته المحبوبة، وإنما يقبل يدها لأنها والدته طفله، وهو خاشع أمام شعاع الأمومة الذى يلوح على وجهها الشاحب المتعب بعد آلام الولادة، في هذه القبلة على ظهر يدها تقديس نبيل الجديد للأمومة)) □ □ ٣٥ .

مثلت الشخصية الرئيسة "نبيل" موقف الرجل المتمرد الراض للأبوة إذ شكّلت محوراً مهماً مع عناصر القصة الأخرى، من خلال البعد الاجتماعي والنفسي لهذا التمرد؛ إذ إن الذات تتغير من حالة إلى أخرى؛ فنها تغير بنية المشهد السردى باتخاذها صورة مغايرة بإطار مختلف، حيث تحول موقف الشخصية من رفض الأبوة إلى تقبلها، ويظهر ذلك في وصف السارد لـ نبيل " خاشع أمام شعاع الامومة".

يقول الراوي على لسان "سمية" ((وقد كنت أتوقع أن ترفض طلبى، ولكنى رأيتها على العكس تطيعني فتنهض في انقياد تام، وتنفض التراب عن شعرها المسترسل بهزة في رأسها، كان هناك تراب كثير على خدها وشفتيها وقد اختلط بدموعها، وشعرت بعطف هائل عليها، عطف لم أشعر مثله قط نحو إنسان فضممتها وبكيت، لا أظن أن هناك صببية في مثل بسالة أختي الصغرى هدى، وفي تلك اللحظة كانت أنبل منا جميعاً، لقد كان باسم معبودها، ورأيتها تسير متعثرة وهي تكاد تسقط حتى إذا بلغت بطانيتها المطروحة على التراب انحنت ورفعتها ثم تناولت حبل الفرس وبدأت تسير، وحين اطمأنتت عليها لحقت نادرة التي كانت لا تقوى على السير وقد استحالت رجلاها مرتختين وكأنهما حبلان وهي تصرخ)) □ □ ٣٦ .

٣٤ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٧٤٨.

٣٥ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٧٦١.

٣٦ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٦٧٩.

تروي القاصة النص على لسان الراوي محدود العلم، حيث يتطرق النص بسرد إحدى الشخصيات الرئيسية في القصة بواسطة الضمير المتكلم (أنا) قصة توقع التمرد ولكن لمحدودية الراوي - سمية- فقد حدثت الاستكانة والانصياع لتوجيهاتها التي وجهت إلى هدى المنهارة لموت ولدها الصغير. ففكرة الذات هنا تتركز حول الاستكانة على النقيض مما امتازت به الشخصية، إذ عرفت بحبها للخيل والفروسية، فالذات تصور حالة قبول الجلاء والبعد عن الوطن والاستكانة لليهود/الآخر، أي أن رفض الذات نابع من شعورها بالرضوخ والاستسلام، فالعلاقة التي تربط الشخصية بالآخر/المعادي، قائمة على قاعدة (غالب أو مغلوب)، حيث تتحول الذات لتأخذ شكل المستكين للواقع السياسي الجمعي.

((ما أسخف الناس إذ يقيمون الحفلات المزدهمة الصاخبة ليلة الزفاف؟ ألا ما أجمل الصمت والهدوء يلفها ويلف نبيلاً وهما جالسان متجاورين في السيارة، إن الأشياء كلها تكتسب معنى وعمقاً، وتستطيع هي أن تشعر بروعة هذه اللحظات وهي على عتبة حياة جديدة مجهولة، مع رجل زميل لها في الكلية، اختارها واختارته دون أن يؤثر فيهما احد))^{٣٧} □

في النص السابق، تظهر الذات العليمة المتمردة على العادات والأعراف الاجتماعية، فسلوك الشخصيات الرئيسية جاء منسجماً مع سلوك التمرد، فالنص أراد أن يبرز الفهم الحداثي الشمولي الذي يهدم المنظومة المجتمعية المبنية على العادات والتقاليد، ولعل من النماذج التي تبين تمرد الذات على الآخر قول السارد "ما أسخف الناس إذ يقيمون الحفلات المزدهمة الصاخبة ليلة الزفاف"، فالنص يبرز حدة الوعي بأزمة الواقع.

((أنت تتعالى على عواطفك العميقة لأنك رجل، ومجتمعنا يأبى على الرجل مظهر الرقة لأنه يُعد ذلك ضعفاً، وهذا في نظري خطأ، وهو خطأ حتى في نظر الله سبحانه، وإلا فإن كان الخالق يسأل الرجل ألا يبكي لأن البكاء من شيم النساء، فإن النتيجة الحتمية أنه لا يعطيه الدموع وإنما يخص بها المرأة، ولو بكى الرجال في ساعات الانفعال لنزل المطر، وتفتقت الأرض بالكمأة وعيون النرجس، لو بكيتم يا رجال العراق لتكلمت الطبيعة، ورحل الاستعمار البريطاني، لو بكيتم يا أحببنا لسمعنا صوت الله))^{٣٨} □.

يرتكز هذا المشهد على مفهوم أيديولوجي يشاكس الواقع الجديد ويحاول أن يقرر أنّ فكرة التغيير لا يمكن أن يصل مفعولها التام، مالم تقترن بأنموذج مبتكر يرتكز على أسس جديدة تحمل روح المعاصرة، وتتطلق من حواضنها الاجتماعية. فالتغيير لا يتشكل من المظهر فقط، وإنما ينبثق من المضمون، مضمون

٣٧ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٧٤٣.

٣٨ - الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٧٠١.

دواخل الشخصيات وقدرتها الفعلية على التغيير؛ فذات الشخصية تنمرد هنا على السلوك الجمعي المتمثل في رفض بكاء الرجل. لقد شكّل هذه التمرد على واقع المجتمع محاولة للدفاع عن إظهار الرجل لعواطفه وعدم كبتها، وهذا ما دفع بالقاصة إلى الدعوة لسلوك الاستكانة من خلال التمرد على قيم المجتمع في رفض بكاء الرجل وإظهاره بمظهر القوي.

((وسألت سمية متى نبدأ الرحيل؟ فأجاب كمال إننا ننتظر صافرة الإنذار فقد حددت السلطة العربية نقطة على الحدود إذا تخطاها العدو وجب على السكان العرب أن يرحلوا، وساد الصمت دقائق وابتعد كل منا عن الآخر مسافات، وجلست سمية صامتة لا يبدو عليها أي شيء،))^(٣٩). القصة سارت بلغة أدبية ممشوقة، بنيتها متناسقة عرفت تزواجاً مترابطاً بين السرد والحوار والوصف، فضلاً عن ذلك يكشف السياق قدرة القاصة على تطوير السرد القصصي والتوظيف اللغوي بشاعرية معمارية أضاعت القصة ببلاغة السرد، أمسى النص أكثر إشراقاً، وقدرة على التعبير عن مفهوم الخضوع والاستكانة من خلال إستخدام الكاتبة لتعابير دالة على الاستكانة مثل: "ننتظر صافرة الإنذار" و "جلست سمية صامتة"، فكلها دلالات على إستكانة ذات الشخصية أمام خضوعها للآخر.

((- هل على الإنسان أن تخضع حياته لقواعد ثابتة كل الثبات؟ إن التغيير بين الحين والحين جميل، وأنا أريد أن أتغير بأن أطيّر من وضع إلى وضع كالفراشة، لا أدري ما أريد يا أمي، كل ما حولي في الدنيا يبدو لي وكأنه يناديني النهر يدعوني، وعندما أقف أمامه أحس وكأن أمواجه البنية تصيح: إنني أحبك، تعالي وغوصي في أعماقي، أريد أن أضمك وأحتويك في أحضاني، حتى الموت يناديني.))^(٤٠). الذات الراوي توظف التمرد من خلال الحوار الذي يبين الاستنكار على القيم والقواعد الثابتة في السلوك المجتمعي، للإعلان عن حالة التمرد الاجتماعي التي تعيشها الشخصية، ورفضها القواعد الثابتة في المعيشة، لتؤكد الذات ولادة جديدة للشخصية تنمرد فيها على واقعها مشكلة الآخر الذي يرغب بالتغيير، فاستخدمت الراوية تعبير "التغيير بين الحين والحين جميل" و "أريد أن أتغير بأن أطيّر من وضع إلى وضع كالفراشة"، كما وظفت الراوية التعابير الحسية لهذا الغرض مثل: "النهر يدعوني" و "تعالي وغوصي في أعماقي" و "حتى الموت يناديني".

٣٩- الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٦٦٩.

٤٠- الشمس التي وراء القمة، نازك الملائكة: ٧٠٨.

الخاتمة

وبعد.. أرجو أن يبين بحثي المتواضع بين طياته صورة واضحة عن تجليات الذات والآخر في مجموعة الشمس التي وراء القمة لأول تجربة قصصية للمبدعة نازك الملائكة، ولست أدعي أنني قد الممت بكل ما يتعلق بها، ولكنني متأكدة حسب اعتقادي أنني بذلت ما بوسعي من جهد مستعينة بالله تعالى وتوفيقه أولاً وأخيراً

...

حاكت القاصة قصصها بنسج من فصاحة بليغة ومشرقة ارتكزت فيها على موهبتها الشعرية وتقنياتها، واصفة فيها احساسها التي تتصارع في داخلها بلغة نثرية قريبة إلى الشعر، وبالخصوص في قصة (ياسمين) التي سردت بها خلجات الغربة في أمريكا.. حاولت نازك في قصصها اقناع القاري بموضوعية الحزن، واعتمدت الإيحاء أكثر من الأسلوب التقريري المباشر، بعرض المواقف الصعبة والحساسية في حوارية تدور بين شخوص قصصها.. وقد أشعرت المتلقي لقصصها بانها تؤدي مونولوجاً داخلياً مغلفاً بأساليب الديالوجك بين شخوص قصصها وأغلبهم مغمورين، لا يرقون إلى البطولة والبطولية. استنبطت القاصة شخوص قصصها من قلب حياتها اليومية، اشتركوا بالمكان الواحد و الزمان الواحد متكئين على خلفية الحدث و الوضع المراد الحديث عنه. نجحت القاصة/الشاعرة في قولبة مجموعتها بديراما قوية ذات دقات شعورية عالية التأثير بالمتلقي واستعاضت عن غياب حبكة الحدث عن بعض قصص المجموعة، مزجته بتشكيلات عديدة، تظافت جميعها لترسيخ فكرة كل قصة وسرد الأحداث لتظهر منسجمة دون تشتيت.

المكان في قصص نازك تمثله ككيان يحتوي على مجمل التفاعل بين الإنسان ومجتمعه ، لذا فهو يحمل جزءا من اخلاقية و أفكار و وعي ساكنيه و هو لديها الجغرافية الخلاقة وجزءا من الحدث . والأحداث لديها محددة بدقة بأمكنة وأزمنة.. ولو درسنا الزمن في قصصها ، لعرفنا مستويات الخلق الفني لدى القاصة، من خلال تفاعلها مع الأحداث والشخصيات في زمنها المحدد. في التشكيل الظاهري لبيت الطفولة الذي ترعرعت فيه نازك نحس به كأنه وعاء اكسبته تشكيلة جمالية خاصة، وبحرفية عالية تصف مكوناته ذات المسميات الشعبية ، والتي لم تعد تستعمل حاليا في مفردات لهجتنا المحلية ، مثل الليوان والأرسي وسرداب السن والرازونة والطارمة والكبشكان وهي من اوصاف لبيت الطفولة الذي سكنت فيه ، فقد اضطرت الأدبية الكبيرة أن تضع فصلا أخيرا في كتابها بعنوان ملاحظات، شرحت فيه باختصار تلك المفردات والمرافق التي ربما لا زال يتداولها محبو التراث . وقد يجهلها عامة الناس.

وقد توصل البحث إلى نتيجة تمثلت أن في هذه المجموعة تمرت الملائكة على ذاتها الشاعرة وتبنيها الآخر من خلال ولوجها الى عالم القصة، ولذات القاصة المتألقة أثر غير قليل في إنتاج المجموعة القصصية التي تمثل صورة ذاتية للقاصة، على الرغم من إختفاء ضمير المتكلم وحلول ضمير الغائب بدلاً عنه، فإن اهتماماتها الأدبية وطموحاتها وأهدافها التي كتبت عنها ونظمت فيها تكشف عن صاحبته.

المصادر

*الآخر بما هو اختراع تاريخي، جان فارو ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا اليه، تحرير :

*الطاهر لبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م.

*أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ط٧، ١٩٦٧ .

*الالتزام والتصوف في شعر عبد الوهاب البياتي، عزيز السيد جاسم، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة،

ط١، ١٩٩٠.

*الأنثروبولوجيا النفسية، د. قيس النوري، جامعة بغداد، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٩٠.

*اوهام النخبة ، أو نقد المثقف، علي حرب، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١،

. ١٩٩٦ .

*البعد الجغرافي وصورة الآخر، مصطفى عمر التير، ضمن كتاب صورة الآخر العربي

- *البير كامو وادب التمرد، جون كروكشانك، ترجمة وتصدير د.جلال العشري، ١٩٦٠.
- *تاريخ الشعر العربي الحديث، احمد قبش، مطبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٧١.
- *التخلف الاجتماعي مدخل الى سايكولوجية الانسان المقهور، مصطفى حجازي، معهد الانماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٦ .
- *دير الملاك، د.محسن اطيماش، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨٢ .
- *شخصية المثقف في الرواية العربية المعاصرة، محمد رجب الباردي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩٣.
- *الشعر في إطار العصر الثوري، د. عز الدين اسماعيل، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦.
- *شعرنا الحديث الى اين، غالي شكري، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٩٨ .
- *الشمس التي وراء القمة ضمن كتاب الأعمال النثرية الكاملة، نازك لملائكة، المجلس الأعلى للثقافة، ج٢، ٢٠٠٢.
- *المدخل إلى علم النفس، أ. د. عبد الرحمن عدس، أ. د. محي الدين توك، دار الفكر للطباعة، الأردن، ط٤، ١٩٩٧ .
- *مصطلحات مختارة في الأدب واللغة والدراما، قحطان فؤاد الخطيب، طبع بمطبعة الجمهورية، الموصل، ط١، ١٩٦٧ .
- *معجم مصطلحات الأدب - إنكليزي - فرنسي - عربي، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤ .
- *نزار قباني شاعر قضية والتزام، ايليا الحاوي، ج٢، مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت .
- *الاغتراب في شعر نازك الملائكة، ساجدة التميمي، إشراف صبحي ناصر، بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٦.(أطروحة دكتوراه)

*ثنائية الذات والآخر في شعر السياب، علي عبد الرحيم كريم، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٧.
(رسالة ماجستير)

*أثر بعض المتغيرات في التمرد النفسي، ميسون عبد خليفة سلمان، بغداد، ١٩٩٨. (رسالة ماجستير)

*الأدب و الايديولوجيا ، د.عمار بلحسن، مجلة المنار، باريس، ع (٥٨)، س (٥) اكتوبر، ١٩٨٩

*اسئلة الشعر في زمن اللاشعر، رشيد بنحدو، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج ١٩ ، ع (٤) ، ١٩٨٩

*التحديات التي تواجه القصيدة العربية الحديثة، د.عبد الستار جواد، مجلة الآداب اللبنانية، ع (١١) ،

١٩٨٨ (١٢)

*خمسون عاماً من التجديد، ماجد صالح السامرائي، مجلة الأقلام، العدد ٥، تشرين الثاني ١٩٩٨ : ٦

(بحث).

*ما النقد، رولان بارت، ترجمة د. محمد نديم خشفة، مجلة آفاق عربية، ع (١٢)، س(١٥) كانون الأول

١٩٩٠م

*موسوعة النابلسي، استرجع بتاريخ ٥-٢-٢٠٢١، (<https://2u.pw/8IAVd>)